الفصل التاسع

الصراع السنوسي – الفرنسي المسلّح

الفصل التاسع

الصراع السنوسي – الفرنسي المسلّح

- التغلغل السنوسي
- التوجّس التركي
- الغزو الفرنسي
- مقاومة السنوسيّة للغزو
- مواصلة المقاومة بقيادة السيّد أحمد الشريف

الفصل التاسع

الصراع السنوسي – الفرنسي المسلّح

التغلغل السنوسي

من العرض السابق تبيّن لنا أن الإسلام دخل تلك الأصقاع من السودان الغربي منذ القرن السادس عشر الميلادي، بل لقد علمنا أن جذورا عرقيّة عربيّة تغلغلت فيه منذ غابر الأزمان. وكان من أهداف السنوسيّة من وراء توغّلها في هذا العمق جنوبي ليبيا، إضافة لنشر مذهبها السلفي الإصلاحي ومنافسة بقيّة (حركات الجهاد) والطرق الصوفيّة الرئيسيّة الأخرى التي سادت قبلها في تلك الأقاليم، التحكّم في طرق القوافل وتوسيع نطاق تجارتها كما أوضحنا سابقا. وكان همّ الطرق الصّوفيّة الأخرى منصبّا على بثّ دعواتها الخاصّة بها والإستحواذ على مزيد من الممتلكات، إلى درجة الصدام المسلّح مع السلطات المحليّة، حتى ولو كانت مسلمة مثلها. فغرضها كان هو التوسّع وبناء (الإمبراطوريّات)، على العكس من السنوسيّة التي لم ترفع السلاح في وجوه الآخرين من الحكام والدويلات. بل ركّز السنوسيّون نشاطهم على التغلغل السلمي عن طريق بثّ الدعوة وتشييد الزوايا أينما وصل نفوذها لاجتذاب المريدين وكسب الأنصار وتوطيد النفوذ.

ويمكننا أن نأخذ مثلا على الحركات غير السنوسيّة والمخالفة لسلوكها، ما قام به الشيخ (عثمان فان دان فوديو) زعيم قبائل الفولاني، والذي أسّس مملكة سوكوتو (شمالي نيجيريا الحالية)، فنجده قد أعلن الجهاد عام **1804** ضد الوثنيين من أقوام (الهاني) وملوكهم حتى هزمهم وسحق قوّاتهم عام **1808**. وفي المرحلة الثانية من زحفه والتي استمرّت حتى عام **1811**، هاجم سلطنة (بورنو) المسلمة المناوئة والمنافسة له في إقامة إمبراطوريّتها الخاصّة بها. أمّا في المرحلة الثالثة التي استمرّت حتى عام **1830**، فقد زحف الفولاني جنوبا حاملين رايات توسّع ذي طابع سياسي أيضا. وعندما مات الشيخ المؤسّس (دان فوديو) عام **1817** خلفه إبنه محمّد أبيلو الذي أدار الإمبراطوريّة بحنكة، إذ كان ورعا تقيّا، فقضى على الفساد ونظّم جباية الضرائب، وأصبحت سوكوتو في عهده عاصمة لإمبراطوريّة تتكوّن من عدّة إمارات تحت حكم وراثي لتلك العائلة استمرّ حتى عام **1859**، حين دبّ فيها الوهن بسبب التناحر والإنقسامات بين تلك الإمارات والسلطنات، وبسبب ما قامت به من غزوات وغارات سلب ونهب ضدّ بعضها البعض.

غير أنها – رغم ذلك- حافظت على هيكليّة مؤسّساتها راسخة. وحين جاء الإستعمار البريطاني عمد إلى احتوائها دون الإصطدام بها. وبذلك احتفظت بهيبتها ومؤسّساتها الدينية إلى وقتنا الراهن.

أمّا بالنسبة للطرق الصوفيّة التي كانت تنافس السنوسيّة في تلك الأقاليم، فنجد أنها كانت ثلاث طرق هي: القادريّة وهي إصلاحيّة دينيّة مثل السنوسيّة التي تُعتبر متفرّعة عنها كما جاء في السرد. وقد أسّس القادريّة عبد القادر الجيلاني في العراق في الأعوام من 1066 إلى 1079. وانتشرت أولا في الجزائر (وهران) والمغرب (فاس) ثم امتدّت إلى السودان الشرقي (الخرطوم وكردفان)، والواداي وبورنو وسوكوتو. والثانية كانت الطريقة الرحمانيّة، وقد سبق الحديث عن دورها في مناوئة جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ضد الإستعمار الفرنسي، بل وتواطنها مع هذا الإستعمار إلى درجة التحالف معه في اجتياح قوّاته للسودان الأوسط. وإن كان البعض يُرجع هذا التحالف إلى كراهيّة الطريقة للهيمنة العثمانيّة على بلدان المغرب وقت ذاك. وفي هذا الصدد يذكر المؤرّخ التركي عبد الرحمن تشايجي أن مقدّم زاوية (قويمار) التابع لهذه الطريقة قام بإقناع شيوخ الطوارق عام 1891 بأن يرسلوا وفدا منهم الى الجزائر مكوّنا من ثلاثة أعضاء، واحد من الهوغار وواحد من الأيفوغاس وواحد من الأزقر، لكسب ودّ السلطة الإستعمارية الفرنسيّة فيها، والتي أغدقت عليهم الهدايا الثمينة حتى يعقدوا الصلح معها. غير أن مقدّم الزاوية المذكورة دفع حياته ثمنا لهذا التواطؤ، إذ قُتل على أيدي الثوّار الطوارق مع من قُتلوا في بعثة (فلاترس) الفرنسيّة عام **1881** والتي سبقت الإشارة إليها. وعلى الرغم من أن القادريّة عملت ضد الإستعمار الفرنسي في البداية، إلاّ انها، مع الرحمانيّة والتيجانيّة، "كانت تهاجم السنوسيّة وتقف الى جانب فرنسا وقوفا مباشرا أو غير مباشر. وقد لاحظنا ذلك في دراسة وثائق الإرشيف الفرنسي ."[1] ولا غرابة في موقف التيجانيّة هذا، وفقا لما سبق لنا ذكره عن مناوءتها لجهاد الأمير عبد القادر الجزائري.

أجمع المؤرّخون الأوربيّون الذين رصدوا نشأة وانتشار السنوسيّة، أن أوّل إتصال بين قادتها وبين سلاطين تلك الأقاليم السودانيّة قد جرى في غضون عام **1830**، عندما تعرّف الإمام محمد بن علي السنوسي على محمد الشريف الذي جاء الى مكة للحجّ، ثمّ

---

١ تشايجي - مرجع سابق ص 162. ويلاحظ هنا أن الكاتب في دراسته هذه ركز على نشاطات الدولة العثمانيّة ضد التغلغل الفرنسي في السودان المتاخم لليبيا،متجاهلا دور الحركة السنوسيّة. وذكره للسنوسيّة هنا جاء نادرا في سرده، لأنه ليس مواليا لها، وبذلك أكد صفتها النضاليّة.

أصبح سلطان (واداي) عام 1838. وقيل إنه ارتبط معه بأواصر صداقة توطّدت بعد أن شيّد السنوسي الكبير زاويته في الجغبوب، والتي أصبحت مركزا دينيا، وأيضا محطّة رئيسيّة للقوافل في طريقها من أقاليم السودان الى الثغور البحريّة على الساحل البرقاوي، كما قيل إن السنوسي الكبير سمّى أحد أبنائه (محمّد الشريف) تيمّنا بصديقه سلطان واداي. ومن ثمّ صارت زيارات سلاطين الواداي للجغبوب متتالية. وذكر (دوفيرييز) قصّة قافلة العبيد التي كانت مجلوبة من واداي في طريقها إلى البحر الأبيض عبر الجغبوب والتي حرّرها الإمام السنوسي بنفسه، وأرجعها الى الواداي حاثّا أفرادها على نشر تعاليم الطريقة في أرجائه بعد أن لقنهم إيّاها. كما ترجمت الرحّالة الإنجليزيّة (روزيتّا فوربيس) وثيقة من العربيّة كانت عبارة عن رسالة سبق أن بعث بها السنوسي الكبير الى سكان (واجينجا) بالواداي يلخّص فيها تعاليم السنوسيّة في : تنبيه الغافل وتعليم الجاهل وهداية الضال. وفيما يلي نصّها: "إنه من عبد ربّه سبحانه محمد بن علي السنوسي الخطّابي الحسني الإدريسي إلى المكرّم الأجل العمدة الأفضل الفقيه النبيه ولدنا الشيخ فرج الوجنقاوي وكافة جماعة بلد وجنقه كبيرا وصغيرا ذكر وأنثى سلّمهم الله جميعهم وأنالهم من خير الدارين مرامهم آمين. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وتحيّاته ومغفرته ومرضاته وبعد فالقصد المطلوب والأمر المرغوب هو السؤال عنكم وعن كليّة أحوالكم جعلها الله جارية على منهاج كتابه وسنّة نبيّه (ص) وشرف وكرم وعظم. وثانيا فإنّا ندعوكم بدعاية الإسلام من طاعة الله ورسوله. قال تعالى في كتابه العزيز : "يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول "[٢] وقال تعالى : "من يطع الرسول فقد أطاع الله"، وقال تعالى: "من يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا". والطاعة هي امتثال أمر الله ورسوله من إقامة الصلوات الخمس وصيام شهر رمضان وأداء زكاة الأموال وحجّ بيت الله الحرام واجتناب ما نهى الله عنه من الكذب والغيبة والنميمة وأكل أموال الناس بالباطل وشرب الخمر وقتل النفس بغير حق وشهادة الزور وغير ذلك ممّا حرّم الله ورسوله، فبذلك تنالون الخير الأبدي والربح السرمدي الذي لا يعتريه خسران ولا يحوم حول حماه حرمان. وقد طلب منّا أناس من ذلك الطرق أن نبعث معهم بعض إخواننا يذكرون عباد الله ويعلّموهم ما فرض الله ورسوله عليهم ويهدوهم الى سبيل الرشاد. وعزمنا على ذلك لكون هذه الوظيفة هي التي أقامنا الله عليها، ننبّه الغافل ونعلّم الجاهل ونرشد الضال. ولكن نحن الآن بالحرمين الشريفين. وعندما قدمنا لهذه النواحي واشتغلنا بدلالة العباد الى الله، وما رأينا أحدا من ناحيتكم حتى نوجّه معه من يعلّم الناس دينهم الذي ارتضاه. والآن فإن أتباعنا –جماعة زويّة- الذين هم أهل (تزور) –موقع – المعلومة عندكم قدموا الينا وتابوا على أيدينا

---

٢ نلاحظ هنا أنه لم يُكمل بقيّة الآية وهي :"... وأولياء الأمر منكم". فهل تعمّد ذلك لأنه قصد عدم حثّهم على الخضوع لحكامهم؟!

وطلبوا بناء زاوية بموقع (تزور) المذكورة، وقصدنا في ذلك مجاورتكم وتعليمكم أنتم وأبنائكم كتاب الله وسنّة نبيّه محمّد (ص) وإصلاح ذات البين، بينكم وبين هؤلاء العربان الذين يغيرون عليكم ويأخذون أبناءكم وأموالكم عاملين بقوله تعالى: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما". "وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين"، وبقوله تعالى " لاخير في نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو لإصلاح بين الناس، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما " فبذلك يحصل التعاون على البرّ والتقوى كما أمر الله بذلك في قوله: "وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان". وبقوله (ص) "كونوا عباد الله إخوانا وعلى الدين أعوانا". وأما الفتنة والمنازعة لا خير فيها بل لقد نهى الله عنها في كتابه العزيز بقوله:"ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين" وإن شاء الله إذا امتثلتم أمرنا وتبعتم نصيحتنا فسيقدم عليكم بعض أبنائنا يعلّمون أبناءكم كتاب الله، ويعلّمون رجالكم سنّة رسول الله (ص)، ولا تخافوا بعد ذلك إن شاء الله من أحد وترون فضل الله ورحمته ما ليس عليه من مزيد، وبلّغوا سلامنا وكتابنا هذا الى كلّ من حولكم ممن يريد طاعة الله ورسوله وأتباع الكتاب والسنّة، وربّنا تبارك وتعالى يجعلكم هادين مهديين دالين على الخير وبه عاملين بمنّه وكرمه آمين. ودمتم بخير وعافية، ونعم متواترة ضافية ".

وأغلب الظنّ أن الذي قام بهذه المهمّة كان الشيخ فرج الوجنجاوي الذي ورد ذكره في كتاب بازامة، والذي وصفه بأنه :"كان أنجب الأرقاء الذين امتلكتهم السنوسيّة فأعتقه السنوسي وعني بتربيته وتعليمه حتى إذا نال من العلم قسطا وكمل إعداده بعث به إلى قومه مرشدا، فمهّد الطريق ببثّ الدعوة هنا، وعني بأمر النزاع القائم ما بين التبو والزويّة، فسعت السنوسيّة ما بين الفريقين بالمصالحة ونجحت في إحلال السلام، ولم تعد العلاقة بينهما على ذات التوتّر الذي كان، فأمن التاجر واطمأن الطريق ما بين الكفرة والوجنقات، ولا يستبعد أن يكون للشيخ فرج الوجنقاوي بالذات دور حمامة السلام".[٣] وبعد موت سلطان الواداي في عام **1858**، أعلن خليفته السلطان علي الذي حكم حتى عام

---

٣ (تاريخ برقة في العهد العثماني الثاني) هامش (1) ص 503.وهو إعتراف بالدور الإيجابي الذي كانت تلعبه السنوسيّة، على الرغم من أن بازامة كان متحاملا عليها في هذا الفصل، إذ أنه في الهامش (2) من نفس الصفحة قال أن "معظم ما قامت به في تاريخها كان من عمل كبار الأخوان، ولذا فإن ما تمّ من إنقاذهذا الرجل وعتقه وإعداده، إنما تمّ في فترة من الزمن كان محمد بن علي السنوسي خلالها أو في معظمها متغيّبا بشخصه عن برقة". ولا يدري المرء لماذا أغفل بازامة دور الإمامين الذين خلفا الشيخ المؤسّس، أي السيّدين المهدي وأحمد الشريف؟ ولماذا فصل بين مؤسّسها و"الإخوان" من تلاميذه وأتباعه؟ ولم أسقط حادثة عتق الإمام المؤسّس شخصيّا لقافلة الرقيق التي مرتّ بالجغبوب كما رواها (دو فبريير) وهو من ألدّ أعداء السنوسيّة؟.وأخيرا كيف يناقض بازامه ماذكره في المتن من أن "السنوسي أعتقه"، وما ذكره في الهامش من أن عتقه حدث في غياب السنوسي؟

1874، ثمّ السلطان يوسف الذي حكم البلاد في الفترة ما بين 1874-1898، ولاءهما للسنوسيّة. ولكنّ الخلاف نشب مع السيّد المهدي في عهد السلطان إبراهيم الذي حكم اعتبارا من عام 1898، حسب رواية الكابتن الفرنسي Julien في كتابه عن تاريخ الواداي، لأن السلطاان هذا رفض إرشادات السيّد المهدي بعدم شرب التبغ و(المريّسة)، وهي نوع من الجعة المسكرة كانت شائعة بين الأفارقة من أهل السودان، حتى قيل إن إلتصاق الوداويين بها كالتصاق الجلد باللحم. ولذلك رفض السلطان هذه الإرشادات خشية نفور أتباعه من الطريقة، بل والعقيدة إذا ما تعلق الأمر بالمريّسة! فما كان من السيّد المهدي إلا استعمال الحنكة، فتراجع وأفتى بمنح استثناء لأهل الواداي. وبذلك ضمن المحافظة على نفوذه ونفوذ الطريقة، حتى أن السلطان الذي خلف إبراهيم عام 1900 اعتنق شخصيّا السنوسيّة .

ولعلّ من أبرز من تتبّع ورصد نشاط التغلغل السنوسي في السّودان الأوسط،المؤرّخ الإيطالي فرانشيسكو ماريانو الذي يفيدنا[٤] . بأن السيّد المهدي ما أن استقرّ في الكفرة، حتى سارع إلى أن يصبح المهيمن القويّ على التجارة السودانية، والملك العاهل الحقيقي لأفريقيا الصحراوية كما سمّاه. ففي بلاد التبو قام السنوسيّون بفتح المدارس التي كانت تؤمّها بانتظام الفتيات اللاتي كنّ يتميّزن بتفوّق فكري على الذكور في ذلك الجزء من العالم، حسب وصف المؤرّخ الإيطالي. ولا شك أن اعتناق سلطان واداي للإسلام عُدّ فتحاً ذا قيمة سياسيّة؛ فبلاده كانت غنيّة ومنتجة، والعلاقة الوديّة بين الواداي والسنوسية ترجع إلى عهد مؤسس الطريقة كما ذكرنا. وقد مرّ علينا ما جرى بينه وبين قافلة العبيد التي حرّرها، وتوثقت هذه العلاقة في عهد المهدي. وتحت حماية السنوسيّين استؤنف النشاط التجاري عن طريق القوافل عبر الصحراء في ليبيا. ففي الكفرة كما في بقيّة النقاط الأخرى المحتم على القوافل المرور بها، كانت تلك القوافل تدفع الرسوم المقرّرة من قبل الإخوانيّة. وقد جاء الموقع الجغرافي للإقليم كمعبر لتجارة القوافل في صالح أهداف السنوسية، فالواداي أثناء بدء انتشار السنوسية في السودان الأوسط لم يكن لها منافذ إلى الأسواق الكبرى الأوروبية، لأنّ طريق القوافل ـ الكفرة ـ جالو ليس طويلاً كطريق للبضائع، لأنه يستطيع أن يجد منفذاً مباشراً إلى بنغازي أو عن طريق الجغبوب ـ سيوه إلى القاهرة والإسكندرية.

ومن المهم تسجيل ما كتبه الكابتن ماريو كورنيه Mario Cornet عام 1904، وهو أحد الضباط الفرنسيين الكبار الذين شاركوا في أوّل حملة كبرى ضد سنوسيٍّ كانم والبوركو والعنيدي، حيث كتب:

---

٤ أنظر La questione di Giaraboub ص 8-72

"إن المسألة السنوسية كثيراً ما اتسمت بالتشويش وتضارب الآراء، فالبعض ينظر إليها بلامبالاة، والبعض الآخر يعتبر هذه الإخوانية قوّة غامضة لها تشعّبات في جميع أنحاء العالم الإسلامي لكنها، في أحد الأيام وبحركة بسيطة، ربّما تتحوّل إلى منظمّة دينية لا يمكن مقاومتها، وهي ستشكل بذلك إحدى الإمبراطوريات التي سيكون من عدم التبصّر تمزيقها في قلب الأقطار الإسلامية. وهذا من شأنه أن يجعل المسألة أكثر غموضاً؛ فالأخطار المجهولة هي تلك التي تُرعب أكثر وتجعل المرء يبالغ فيها. وحتى الآن لم يستطع أحد بعدُ تصنيف السنوسية بشكل دقيق، فالهدف من النشاط التبشيري لها كان بالتأكيد وضع الدين في خدمة شهوات الحكم المدني (السلطة الزمنية)، ولهذا فرئيس (الإخوانية) حين نشر منذ عام **1850** نشاطه بين العديد من الشعوب في أفريقيا الوسطى كان في ذهنه قبل كل شيء تدبير أمور إمبراطورية في أقطار غنية بالسلع التصديرية وبالعبيد، إذ لم يصلها بعد التفوّق الأوروبي"

ثمّ يستطرد ماريو كورني قائلاً: "لا يمكننا تجاهل أن الإسلام يتغلغل أعمق إلى الجنوب في ممتلكاتنا الأفريقية في اتجاه خليج غينيا، من خلال منافذ النيجر وفي اتجاه الكونغو عبر نهر (شاري) وبورنو وسلطنة دار الكوتي". وختم بالقول: "إن التغلغل الإسلامي هو تغلغل تجاري، وليس هناك أدنى شك في أنها تجارة الرقيق، بينما واجبنا هو إلغاء هذه التجارة، والسماح فقط باستغلال الموارد الطبيعيّة. والأمر أصبح محققاً بالنسبة للسنوسية، فقد رأينا سيدي المهدي يحتكر التجارة الطرابلسية (الليبية) ويُلزم القوافل بأن تمرّ عبر زاويته في الكفرة، ويرسل إلى كانم أحد أعضاء أخوانيته مبعوثاً له، ويسارع إلى الإستيلاء على الموانئ جنوبي الصحراء ليسوق القوافل إليها. وكان من نتيجة هذه البعثة ذهاب سيدي البرّاني إلى كانم في مهمة احتلال البلاد باسم السنوسيّة، ملاحظين أننا في تلك الفترة، أي حتى عام **1898**، فإن تشاد لم تُزر إلا من قبل رحالة نادرين[٥] وقد استغرق البراني ثلاث سنين ليقنع طوارق (الإير) والسكان التبو، ما بين البوركو وتشاد، بأن يحتلوا بلدان الجنوب الغنيّة. وبذلك فُتحت على الفور طريق قوافل عبر بوركو إلى الكفرة،

---

٥ إن المكتشفين الذين زاروا تشاد قبل الاحتلال الفرنسي كانوا كما يلي CLAPPERTON+ DENHAM في 1823، OVERWEG في 1851، NACHTIGAL في 1871-1872، MONTEIL في 1892، FOUREAU أثناء بعثة FOUREAU -LAMY في 1900-1902 وسبق التطرّق إلى مهامهم وما جرى لهم

حيث تلتقي مع تلك الآتية من واداي. وهكذا صار السنوسيّون أكبر تجار العبيد في أفريقيا".

وهنا يتضّح مدى تضليل وتحامل المؤرّخ الفرنسي المذكور لتشويه سُمعة السنوسيّة – وقد كانت تقاوم الزحف الإستعماري لدولته في القارّة- إضافة إلى عنجهيّته العنصريّة في تعظيم الجنس الأوروبّي- وليس في نيّتنا الآن الحديث عن نشأة الرقّ في الوسط الأفريقي، فقد أفردنا لذلك فصلا كاملا في هذه الدراسة، كما مرّ على القارئ. فليس هناك ما دلّ على ممارسة شيوخ السنوسيّة للرّق كتجارة. ولعلّ العكس هو الصحيح، كما اتّضح من تحرير مؤسّس الطريقة لقافلة العبيد المهداة إليه. وإذا كان الرّق حين يذكر في القارّة الإفريقيّة، يذهب ليعني الأقوام السّود من أهلها، فبعض أفراد العائلة السنوسيّة هم أيضا من السّود بحكم زواج آبائهم الشرعي من سيّدات سوداوات البشرة، ولم يكنّ – حسب التحقيق التاريخي- من الجواري أو الإيماء، بل ينتمين إلى شيوخ وعلماء الطريقة المعروفين، وجلّهن من قبائل القرعان والتبو والتوارق. ولم يمنع سواد بشرتهم من تسنّمهم لقيادة الإخوانيّة وبثّ دعوتها كسادة مبجّلين من جميع السكان. وفي تاريخ المقاومة المسلّحة التي قادتها السنوسيّة بعد ذلك ضدّ الغزو الإيطالي، كان أحد قادة هذه المقاومة الكبار الشيخ قجّة بن عبد الله وأصله من "تبو" تشاد قائد وبطل معركة (بئر بلال) سنة ١٩٢٣. وبلغ من درجة قربه من القيادة السنوسيّة وعلوّ مكانته، أنه كُلف من السيّد إدريس سنة ١٩٢٣لكي يطارد هلال السنوسي (إبن عمّ السيّد إدريس) ويأمره بالعودة فورا إلى إجدابيا، لأنه هرب مع أحد الأسرى الإيطاليين في منطقة جالو لينضمّ إلى الجيش الإيطالي. وعندما همّ الشيخ قجّة باعتقاله مستعملا السلاح، إستسلم له واتجه إلى جالو، وعقب ذلك إعتقله السيدّ محمّد الرّضا شقيق السيّد إدريس في خيمة ببلدة غات لمدّة غات شهرين، إلى أن توسّط لدى السيّد الرضا شيخان من أتباع السنوسيّة هما "إفتيّته" و"فرحات" لإطلاق سراحه مقابل وعده بعدم الإنحياز إلى الإيطاليين. وهكذا سمح له بالذهاب مع عائلته إلى الجغبوب، ولكنه تمكّن من الهرب إلى مصر. وهناك كاتب المفوضيّة الإيطاليّة بالقاهرة، وبمعرفة الملك فؤاد سُهّل له المجيء إلى بنغازي التي سقطت تحت الحكم الفاشي.[6] والمعروف أن عقوق السيّد هلال وخروجه على طاعة أخيه السيّد أحمد الشريف، بدأت منذ الحرب ضدّ القوّات البريطانيّة على الحدود المصريّة، ثمّ تعاونه مع الإيطاليين سنة ١٩١٦، ممّا جعل السيّد

6 ورد تفصيل هذه الحادثة في كتاب "مسألة الجغبوب" لفرانشيسكو ماريانو ص ١٩٢. وقد نقل فيه المقابلة التي أجراها الصحفي الإيطالي أورسينو أورسيني مع السيّد هلال والذي إلتقاه بمنزل السيد الشارف الغرياني في (البركة) إحدى ضواحي بنغازي، حيث نزل ضيفا عليه بعد هروبه، ونشرت المقابلة جريدة "تريبونا" في ١٠ سبتمبر ١٩٢٥.

إدريس يطلب من السلطات الإيطاليّة في بنغازي العمل على منعه من التجاوزات التي كان يمارسها ضدّ شخصه. وسيحين تفصيل ذلك في جزء آخر من الدراسة.

ويتحدّث الإيطالي فرانشيسكو ماريانو عن وضع السنوسيّة في أفريقيا الصحراويّة والإستوائيّة قبل الغزو الفرنسي فيقول: إن الرحّالة الألماني الشهير ROHLFS رأى،عند وصوله إلى الكفرة عام **1876**، حجّاجاً سنغاليين قطعوا مسافة **3900** كم مشياً على الأقدام لرؤية السيّد المهدي، ولم يرجعوا إلى وطنهم دون متابعة الرحلة إلى مكة. وهناك تقارير أخرى أوردها DOVEYRIER الرحالة الفرنسي، الذي وجد آثاراً للسنوسيّة في أقصى غرب الصحراء الوسطى، وفي واحة (قوداره) وفي التوات وعين صالح وبلاد التوارق، أي الهوجار و(أير) في تومبوكتو. أمّا في بورنو فقد أبدى السلطان العجوز مقاومة شديدة في وجه تغلغل السنوسية. وهناك منطقة في غاية الأهمية من النّاحية الديموغرافيّة، وتقع شمال بحيرة تشاد وكانت محلّ نزاع بين سلاطين بورنو والواداي. فمنذ **1845** أقامت فيها قبيلة أولاد سليمان الفزانية لتختبئ من رقابة الحكومة العثمانية. وقد اعتنق سكانها المحليّون من (الكانيمبا) والتبو و(البابيلي) المذهب السنوسي، وقام أولاد سليمان بمعاضدتهم بل وقيادتهم في منافحة الكفّار. وحتى نوضّح هذا الموقف لأولاد سليمان، وهم حسب أصولهم الشماليّة استمدّوا روحاً من التسامح الواسع، فمن المناسب أن نروى ماذكره ناختيجال[٧] فقد رأى حين وصوله إلى معسكر(مخيّم) لأولاد سليمان في (بئر البركة) في كانم، رسلاً من الإخوانية السنوسيّة وهم يحاولون حماية التبو والبابيلي التابعين لهم من أولئك الذين كانوا يقودونهم، ولكنهم عندما فشلوا في ذلك تراجعوا، بيد أن المقدّم السنوسي أرسل إلى عبد الجليل رئيس أولاد سليمان خطاباً يلتمس فيه إرسال أمتعة مجموعته بغية وصولها إلى الزّاوية في بوركو، منتقدا وجود شخص ملحد بين أولاد سليمان، وقصد به الرحّالة الألماني المذكور، لأنه لم يسبق أن لطّخ الأوربيّون هذه الأرض بأقدامهم!.

وفي البوركو عُثر على آثار الإخوانيّة في بلدتي (نقوراما) و(جالاكا). وثمّة زاوية شُيّدت للتبو في **Scimedru** في منتصف الطريق بين فزان وبورنو. ويروي ناختيجال أنه حين وصل هذه الزاوية في عام **1870** وبصحبته (سفير) من قِبل حاكم طرابلس الغرب لدى بلاط بورنو،[٨] شاهد منظرا مألوفاً. فعلى العتبة أمام الزاوية جلس المقدّم بلا حراك

---

٧ أنظر كتابه SAHARA UND SUDAN BERLIN 1879-81

٨ قصد به محمّد بو عيشة الذي أوفده الوالي علي رضا باشا كرسول إلى السيّد المهدي. وقد فصّل د. محمد فؤاد شكري في هذا النشاط السنوسي في الوسط الأفريقي، ومراسلات السيّد المهدي

ضاغطاً على حبّات مسبحته، وعيناه شاخصتان إلى كبد السماء، يستقبل - دون أن ينقطع عن نشوة التعبّد - تعظيمات جموع المسافرين الذين تزاحموا على تقبيل صدره أو طرف البرنس الذي كان يرتديه. ولكن ما أن اقتربت منه شخصيّة ذات هيبة كالسفير، حتى أفاق المقدّم وكأنه استعاد وعيه بالعالم، وردّ فقط على الإحترامات التي خصّه بها السفير، وكلّ جزء من حركة كان يوزن بالضبط حسب مرتبة الشخص. وحسب وصف الرحّالة ناختيجال، لم يكن يهمّه كثيرا أن الزائر كان مبعوث والي طرابلس علي رضا باشا الشخصيّة المرموقة، سواء من ناحية النشأة أو الأتباع الموالين له، فقد كان على هذا السفير أن يستصغر حجمه أمام نائب سيدي محمد بن على السنوسي، في تلك الواحة النائية في قلب أفريقيا، لما كانت تتمتّع به السنوسيّة من نفوذ هناك!

في شمال بوركو تمتد السلسلة الجبلية لتيبستي التي تقطنها قبيلة (التيدا) أي التبو الأصليّون الذين لم يعتنقوا الإسلام. بيد أن السنوسيّة قامت بنشر الدعوة بينهم، ولكن لم تقض كليّة على عبادة الأوثان. فعند قدوم ناختيجال عومل معاملة سيئة، وهُدّد بالموت من قبل هؤلاء السكان، وشرب حتى الثمالة من حليب النخيل المخمّر (ويسمّى في ليبيا باللاقبي)، إلى درجة أن اعتبره السنوسيّون آثما.

وتابع ماريانو سرد روايته بالقول: إن أهم فتح للسنوسيّين كان إستيلاؤهم على الواداي. ومنذ تكوينه في وحدة إسلاميّة ابتداء من **1612**، أغلق الواداي- وهو عبارة عن اتحاد كونفيديرالي يضمّ ثلاثين مجموعة عرقيّة ولغويّة لا تربطها أواصر سوى حكومة قوية- أغلق حدوده في وجه النفوذ الخارجي، وحتى العرب لم يستطيعوا اختراقه. وفي **1856** قُتل قتلة شنيعة المكتشف **Edward Vogel**، وكان أوّل أوروبي جرؤ على القيام بهذه المغامرة. وفي **1869** أعلن أن سلطان واداي علي بن محمد أصبح سنوسيّاً متعّصباً. ولا يمكن القول هنا إن الدعاية السنوسيّة أذكت روح التعصب لدرجة ارتكاب أعمال القتل، إذ أن ناختيجال تمكّن من أن يَمثُل بين يديّ السلطان الذي وصفه بأنه شخص فصيح

مع إسطامبول ورسل السلطان إليه، وذلك في كتابه "السنوسيّة دين ودولة" دون أن يشير إلى مراجع الرحّالة الأجانب الذين ذكرناهم هنا، والذين إعتمد عليهم هو أيضا في روايته. تنظر ص ١٢٩ – ١٤٩ إصدار مركز الدراسات الليبيّة – أكسفورد، ٢٠٠٥، وإغفال ذكر المصدر في كتابة التاريخ حسب الأصول - أي إثبات الإسم وتاريخ الإصدار ومكانه ورقم الصفحة إن أمكن- هو عيب وسم هذا السفر القيّم الذي ألفه أستاذ ومناضل قومي كبير قدّم خدمات جلى لقضيّة إستقلال ليبيا تذكر له بالعرفان. صحيح أنه أثبت قائمة بأسماء مصادره في آخر الكتاب، ولكن هذا لا يُعتدّ به كثيرا.

الحديث، نشيط وذكيّ ومحارب، وكلّ الشخصيّات الأكثر ثقافة في الإمبراطورية اعتنقت الطريقة. ولكن إنتشار الدعوة بين الرعيّة كان بالطبع أكثر صعوبة. أمّا (دو فيريير) فقد رأى أن السليقة القتاليّة لسكان الواداي كانت مفيدة للسنوسيين في كفاحهم المسلح ضد الغزو الأوروبي. وعقب موت السلطان علي في **1876**، كُشف النقاب عن النفوذ المتفوّق للسنوسية في هذا الإقليم، إذ أنه لمّا نشب النزاع حول الخلافة، وكاد يُشعل نار الحرب الأهلية بين إبن السلطان علي وعمّه يوسف، إستغلّ السيّد المهدي السنوسي نفوذه لصالح يوسف، فما كان من إبن الأخ إلاّ أن يُذعن دون أن ينبس ببنت شفة. وبذلك أصبح العمّ المستحوذ على السلطة دافعا للجزية وخاضعاً للجغبوب (يقصد عاصمة السنوسيّة وكانت آنذاك الكفرة).

وفي شمال شرقي الواداي، كانت العنيدي و(وادايانجا) منطقتي نفوذ للسنوسيّة (أطلق عليهما الكاتب صفة إقطاعيّتين للسنوسيّة). والكفرة التي تفصلها عن هذا الإقليم صحراء يصعب اجتيازها، كانت العاصمة الدينيّة لأفريقيا المسلمة، ومصدر إنطلاق جميع ردود الفعل في مواجهة التغلغل الأوروبي. وقد ازداد سنة بعد الأخرى نفوذها، ليس بسبب تلقينها المريدين العبادات والشعائر الدينية وطاعتهم لها فقط، ولكن أيضا لتمتعها بالموقع الجغرافي الذي أبعدها عن أي إتصال مع المدنيّة الأوروبيّة. وهكذا يبدو أن الإحصائية التي وضعها **Depont+Cappolani** في كتابهما jurdan 1897 Les Confreries Relegiouses Musulmans-Alger كانت متواضعة، إذ تبيّن أن هناك **33** زاوية سنوسيّة في برقة و **5** في طرابلس الغرب وواحدة في الجزائر و **3** في السودان الشرقي (النيلي) و **2** في مصر و**3** في الجزيرةالعربية، أي ما مجموعه **47 زاوية**. وقد لاحظ **Andrews** في تقريره [9] أن هذا الرّقم كان قطعا منخفضاً جداً بالنسبة لعام **1897**، لأنه بعد عام **1900** استحوذ الفرنسيّون على عدد من الزوايا يفوق العدد المذكور، ومن غير المرجّح أن تكون قد أقيمت كلّها بعد عام **1897**".

التوجّس التركي

وقد أجمع المؤرّخون للحركة السنوسيّة أن ذيوع إنتشارها عن طريق بناء شبكة زواياها، كان سببا لإثارة قلق وتحسّب الدوائر العثمانيّة في إسطامبول. ولشعورها بتضاءل نفوذها في أصقاع نائية من الإمبراطوريّة موالية في العقيدة للإمبراطوريّة

9 Confraternities in French North Africa Islam and"

الإسلاميّة ومتاخمة لها أي السودان الأوسط، فقد تراءى لها أن تستخدم تأثير الدعوة السنوسيّة وعنفوانها بغرض صدّ التغلغل والتمدّد الأوربيين في داخله رغبة في التحكم والسيطرة على طرق القوافل وتجارتها، خاصة أن السنوسيّة كانت أثيرة لدي الباب العالي وأن معتنقي دعوتها كان بعضهم من الحاشية لديه. ومن السهل تبيّن توثّق العلاقات بين الجانبين من رُسل السلطان الذين أخذوا يتوافدون على شيخ الطريقة والخطابات المتبادلة. وكما سبق القول، إذا كانت هذه هي مرامي إسطامبول، فإن زعامة السنوسيّة عملت ما وسعها من جهد للإبتعاد عن نفوذها حتى يتسنى لها نشر دعوتها والحصول على ما يحفظ مصالحها ويحقق أهدافها، مع إستغلال الصفة الدّوليّة للإمبراطوريّة من جانبها كغطاء لنشاطها. ونجد ذلك جليّا في الزيارة التي قام بها رشيد باشا حاكم بنغازي سنة ١٨٩٩ للسيّد المهدي مذ كان في الجغبوب[١٠].واصطحب معه فيها موفد السلطان الصادق مؤيّد العظم، وهو من أعيان دمشق المعروفين وكان حاجبا للسلطان. ولأن الدعايات الأوربيّة ضد السيّد المهدي ونفوذه ومطامحه قد وصلت إلى السلطان، فإنه تحسّبا لضغوط أوربّا عليه، كلف هذا الحاكم لكي يستطلع، ولدى السيّد المهدي شخصيّا، حقيقة الإدعاءات حوله. وعندما ذكر له رشيد باشا أن السلطان "يعتقد بوجود خزائن ملأى بالأسلحة والذخائر والقذائف لدى السنوسيين" ما كان من السيد المهدي إلاّ أن فتح خزائن الكتب قائلا له :"هذه هي خزائننا" الأمر الذي أدخل الطمأنينة إلى نفوس أعضاء الوفد، ومن ثمّ هدّات من مخاوف السلطان.

ولا شك أن تقارير الرحّالة الأوربيين إلى حكوماتهم، التي ذكرناها سابقا، قد لعبت دورا كبيرا في نشر الدسائس ضد السنوسيّة، ومنها ما كتبه الرحّالة الفرنسي "دوفيريير" من تخزين للأسلحة في زاوية الجغبوب، أو الأباطيل التي روّجها من أن السنوسيين كانوا مسئولين عن مقتل العديد من هؤلاء الرحّالة مثل "فوجل" و "فون بورمان" و "فون ديدركن" والآنسة "تيني" و "دورنو دوبريه" و "الكولونيل فلاترز" وغيرهم، وقد سردنا فيما مضى وقائع مقتلهم. وحتى يسمّموا الرابطة بين السنوسيّة وسدّة الحكم في إسطامبول إدّعوا أنها تكنّ الكره لتركيا وتعتبر الأتراك والنصارى ملّة واحدة ينبغي القضاء عليهم جميعا. وإذا كانت دوافع السنوسي الكبير إلى نقل مقرّ زعامة الحركة من "البيضاء" إلى

---

١٠ كان يعدّ من الإخوان السنوسيين وشيخه كان هو شيخ زاوية بنغازي آنذاك عبد الرحمن المقبوض، مثلما كان سلفه علي كمالي باشا تابعا لسيدي عبد الله بن زناد المريني شيخ الزاوية قبل ذلك، والذي صرّح بأنه يعتبر نفسه "خادما للسنوسيّة وتابعا لها أوّلا، ثم موظفا وحاكما بعد ذلك". بينما كان مقدّم السنوسيّة في طرابلس في ذات الوقت سيدي حمزة بن جعفر وهو شقيق محمد بن جعفر الذي كان مستشار للسلطان في إسطمبول

"الجغبوب" تفاديا للتدخّلات والمضايقات المحتملة من الإنجليز في مصر والإدارة العثمانيّة في بنغازي، فإن نقلها من "الجغبوب" إلى "الكفرة" بعد تولي السيد المهدي، قد جاء أضطرارا تحت ضغط التوجّس الذي أظهره الصادق العظم موفد السلطان، والذي أشرنا إليه آنفا. وممّا يؤكد ذلك أن السيّد أحمد الشريف الزعيم الثالث للحركة ذكر في التاريخ الذي دوّنه عن سيرة الشيخين الرّاحلين، السنوسي الكبير وإبنه المهدي، وقال فيه إنه "عندما أمر بالخروج من الجغبوب شقّ ذلك على أهلها" أي أنه لم يكن طوعا وبرضا النفس. ثمّ يصوّر السيّد أحمد يوم الرحيل إلى الكفرة بقوله :"ففي يوم الإثنين الموافق ٩ من شهر شوال ١٣١٢ الموافق ١٥ ابريل ١٨٩٥ دخلا – أي السيد المهدي وشقيقه السيد محمّد الشريف- الرّوضة الشريفة (حيث ضريح والدهما) للوداع. وفي صبيحة يوم الخميس ودّعا الأهل والأخوان، وفي عشيّة ذلك اليوم المذكور كان إرتحالهما من زاوية الجغبوب متوجّهين إلى الكفرة". وقد قصّ في هذا الكتاب أخبار الرحلة التي رافق فيها والده بمعيّة السيّد المهدي، وما لقوه من ترحيب وضيافة من أهالي المناطق التي مرّوا بها، مصوّرا بدقة بينة هذه المناطق الصحراويّة، حتى أنه ذكر أن "حطيّة" تازربو التي أقام فيها السنوسي الكبير زاوية لسكانها من قبيلة الزويّة، مرض فيها والده (أي السيّد محمّد الشريف) مرضا شديدا، ومن ثم انتقلوا إلى حطيّة بالزيمة التي قال عنها "إن السائح البروسي – ويقصد به الرحّالة الألماني رولفس الذي زار الكفرة في عام ١٨٧٩ كما سبق لنا ذكره- أن بها ثلاثة معادن ذهب ونحاس وحديد" ومنها وصلوا حطيّة ربيانة، وأخيرا دخلوا الجوف "التي هي المقصود من الرحلة" بتاريخ ١١ يونيو ١٨٩٥.[١١] وما أن نزل السيّد المهدي بالكفرة حتى أوفد إلى السلطان في اسطامبول رسوله الشيخ عبد العزيز العيساوي في سبتمبر ١٩٨٥ وبرفقته إبن أخيه السيد محمد الأخضر العيساوي[١٢] ناقلا رسالة يلتمس فيها من السلطان تأكيد الأوامر السّابقة إلى متصرّف بنغازي بإعفاء الزوايا السنوسيّة من دفع الضريبة، كما أهدى السلطان مجموعة من "الأحزاب". وفعلا قام إبراهيم درويش باشا ياور السلطان بالردّ باسمه موافقا على طلبات السيّد، ومحمّلا رسوله السيّد عبد العزيز العيساوي نسخة مطبوعة من كتاب صحيح البخاري كهديّة من السلطان مع ساعة " لتكون في الأوقات الخمسة مذكرة له بصالح دعواته لجنابه العالي"، كما رافق الوفد السنوسي صادق بك المؤيّد كمبعوث خاص. وفي رسالة السلطان إلى السيّد المهدي تأكيدات على أحقيّة السلطان بالخلافة التي يتمتع بها آل عثمان منذ مئات السنين. إلاّ أن

---

١١ جاء ذلك في كتاب "السنوسيّة دين ودولة" للدكتور شكري - مرجع سابق ص ١٣٦ – ١٣٨ نقلا عن كتاب السيّد أحمد الشريف بعنوان "الكوكب الزاهر في سماء مجلي الظلام العاكر" وهو مخطوط عثر عليه د. شكري.

١٢ محمد الأخضر العيساوي هو مؤلف كتاب " رفع الستار عمّا جاء في كتاب عمر المختار" الذي أصدره سنة ١٩٣٦، وردّ فيه على كتاب الشيخ الطاهر الزاوي عن شيخ المجاهدين موضّحا لكثير من الحوادث والحقائق.

أهمّ ما فيها قوله: "إن الأغيار من الكفار، بل الملاحدة والمارقين والمفسدين في جميع الأقطار، يحزّبون ويتوالمون في السرّ والعلن، خصومة للسنّة السنيّة على هدم منار الخلافة العثمانيّةالإسلاميّة [ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره]. وحتى من المسموع أن جماعة الإنجليز والإيتاليان وغيرهم قد تدرّجوا إلى أطرافكم بطريق السياحة، وأنتم تعلمون بالفراسة وقرائن الأحوال ما في نفوسهم، وما يخالج سرائرهم من المقاصد المضرّة للدين وللمسلمين" إلى أن يوصيه "بالمدافعة عن الحقوق الدينيّة والسلامة والأمن في الممالك المحروسة الإسلاميّة العثمانيّة من التجاوزات غير المشروعة من أولي الأطماع السيّئة الرديئة... وأبيّن لحضرتكم أن من المسموع أن بعض الرهبان لعلمهم بأن السودان أكثرهم على جهل وغباوة، ويرغبون بالخرز ومثله من ألمتعة اللمّاعة، فهم يأخذون منها الكثير ويذهبون إلى ديار السودان وترجمة الإنجيل وغيره من كتبهم بالعربيّ، فبعد إهداء الأغبياء أشياء من الخرز وأمثاله يقرأون لهم من كتبهم وكأنهم من وعّاظ الإسلام، وبالتدريج يضلّونهم والعياذ بالله ويدخلونهم في دينهم". وقد سافر المبعوث ووصل يتغازي في نوفمبر من نفس السنة، ومنها إلى الكفرة بقافلة صحبه فيها شيوخ من السنوسيّة وأعيان بنغازي. وقد رحّب السيّد المهدي بالوفد، وسرّ صادق بك ممّا شاهده من حماس الأخوان ونشاطهم، وولائهم للخلافة واستعدادهم لتأييدها، فأنشأ قصيدة يمدح بها السيّد المهدي مطلعها:

يا ابن السنوسي يا من شمسه سطعت　　بدرا أضاء قلوب البدو والحضر

لو أرسل الله بعد المصطفى رسلا　　لكنت أوّل مبعوث إلى البشر

ومن جانبه أرسل السيّد المهدي مع صادق المؤيّد خطابا إلى طاهر باشا متصرّف بنغازي ينفي فيه وشايات الأجانب عن دور السنوسيّة ونشاطها في تلك البقاع. ومن بين ما جاء في الخطاب: "وقد أشرتم إلى ما بلغه (أي السلطان عبد الحميد) عن بعض الأجانب، وغضّ الطرف عنه لكونه عاريا عمّا يوارى عولاته من المين، لم يخطر لدينا بخاطر، ويحسب أن منبته يروج، وأن أمنيته تذكر وتموج. كلا فإن الناقد بصير وميزان عدله نصره الله في غاية التحرير، ولسان حاله حريّ بالإستشهاد على رؤوس الأشهاد:

يخالون أن الطود يؤلمه الحصا　　وأن السبنتي بالنبيح يروّع

فلا يملك العلياء إلا سميدع　　وهاأنذا الأريحي السميدع[١٣]

١٣ "السنوسيّة دين ودولة" ص ١٤١ ــ ١٤٥

ويقول المؤرّخ الإيطالي ماريانو :"يبدو أن السيّد المهدي رغبة منه في التركيز على نشر الدعوة وترسيخ بنيانها إبتعد عمدا عن مراكز النزاع السياسي، إذ أصمّ أذنيه عن سماع الدعوة الموجّهة إليه من مهدي دنقله لمؤازرته في مفهومه عن الجهاد في السودان، وقاوم الإغراءات المعروضة عليه من العثمانيين، إذ في صيف **1896** إستقبل في الكفرة، مرة أخرى، الجنرال صادق بك المؤيّد كسفير للسلطان عبد الحميد، وأرجع إليه الهدايا الثمينة التي أهداها السلطان إليه، رافضا أساليب البلاط العثماني في استمالة ولاء الأتباع بالهدايا والرّشاوى.[١٤] وبعد ذلك وحين قام والي برقة (يقصد متصرّف بنغازي) رشيد باشا بجولة في الدواخل، لم ينس أن يقوم بزيارة المهدي في الكفرة. وإعراباً منه عن مظهر الصداقة والتقدير فإنه لم يصطحب معه مرافقين مسلّحين، وارتدى زياً عربياً بدلا عن لباس جنرال تركي. وفي عام **1897** نزل بالكفرة شريف مكة كلفتة إحترام منه للسيّد. [١٥]

إن سياسة الهدايا والوفاق هذه إنتهجها الوطنيّون العثمانيّون،[١٦] في مظهر تصرّف متعمّد ضد القوى الأوروبية، بعكس سياسة الجامعة الإسلامية للسلطان عبد الحميد التي كانت تبني للمستقبل البعيد، أي إعطاء التنازلات الترابيّة والاقتصادية المخجلة، والتي أرغمت عليها تركيا. ولهذا كتب الشبان الأتراك في ديسمبر **1909** في جريدة (أشدام) الصادرة في اسطامبول قائلين :"إن عبد الحميد كان محطّماً للإسلام عن وعي، وأن سيدي محمد المهدي السنوسي عمل هو الآخر الكثير لتقسيم الإسلام وجعله مكروهاً. وهذان المجرمان الكبيران(هكذا!)، سعيا لنفس المقاصد، وإن تباينت أغراضهما. بيد أن شهوة التسلّط تجعلهما يلتقيان في نفس الموقف المخزي". ثمّ يستطرد المؤرّخ الإيطالي الفاشي إلى القول:

---

١٤ لم نجد مصدرا آخر يؤكد قيام السيّد بإرجاع هدايا السلطان، فليس هناك ما يبرّر ذلك. ولو أن أحمد صدقي الدجّاني في كتابه عن الحركة السنوسيّة، أشار(ص١٣٧ - ١٣٨ من ليبيا قبيل الإحتلال الإيطالي) إلى أن الصدر الأعظم سعيد ناموق طلب من أحمد راسم والي طرابلس الغرب في نفس السنة أن "يحسن معاملة السنوسيّة وأن يبيّن (للسيّد المهدي) حرص السلطان على معرفة أسباب إنتقاله من الجغبوب إلى الكفرة". أي أن هناك توجّسا من السلطان، ربّما كان هو ما أثار غضبه وجعله يُرجع الهدايا، حسب استنتاجنا. وفي نفس الرسالة عبّر له عن عواطف طيّبة، لأن الصحف المصريّة نشرت ما يفيد أن السيّد المهدي نصح أنصار مهدي السّودان الإلتزام بطاعة الدولة العليّة.

١٥ تفرّد هذا المؤرّخ الإيطالي بذكر الزيارة المذكورة التي لم تمرّ علينا فيما اطلعنا عليه من مصادر.

١٦ لعل المؤرّخ الإيطالي يشير هنا إلى جماعة الإتحاد والترقي المعروفة "بالشبّان الأتراك" أو "بتركيا الفتاة"، والتي تكوّنت بشكل سرّي عام ١٨٨٩، ثمّ استطاعت تنحية عبد الحميد عن العرش والسيطرة على الحكم إبّان ثورتها عام ١٩٠٨ كما سيلي ذكره.

"إن الزمن يجري بسرعة، والغنّوصيّة (ويعني بها هنا أللاأدريّة أو إنكار حقائق العالم) التي يتّبعها المهدي مآلها أن تنتهي. فإذا ما تمنّع عن إعطاء العون لإنقاذ تركيا، فالوقت سيأتي ليجعله مضطرّا للدفاع عن نفسه وأتباعه من غزو الكفّار (غير المؤمنين). أما إذا ابتعد عن المشرق ليهرب إلى الحرب، فالحرب ستداهمه من المغرب". ويضيف: "وقد تنبأ بوقوع هذا دوفيريير[17] حين كتب: "بين النيل والمحيط، بين أفريقيا الشمالية وأفريقيا الوسطى، تترامى صحراء واسعة لم يستطع أن يتوغّل فيها سوى رحالة نادرين كانوا تحت رحمة سكانها، وحيث لم تتسخ أرضها بأقدام الكفّار. وستكون هي الصحراء التي يختارها السنوسي كميدان لمشروعاته: صحراء بدون ماء تفترسه فيها شمس محرقة، حيث تشبّث بها كحبل ينجيه من عدوى الوباء الأوروبي". وأوّل بلد أوروبي حاول تقوية حبل النجاة هذا كان فرنسا بالذات. وعموما كانت الخطوات الأولى مسالمة، فالمهدي طالب بكل بساطة بألاّ يتمّ إزعاجه. وكان ممتناً لو أن فرنسا ثأرت له من العدوّ المشترك، أي التخلص من رابح، سلطان بورنو الذي كان هو مركز القوّة في الصحراء.[18]

ففرنسا إذن، باشرت التوغّل ـ في ظلّ أحسن الظروف ـ نحو بحيرة تشاد، والذي استمرّ من **1895** إلى **1900**، حتى أن فورو **Foureau** قال في كتابه (داخل الهرّوج ـ تجوالي في الصحراء ديسمبر **1895 - 1896**) : إن عداوة التوارق لم تكن مدعومة من قبل السنوسيين. كما أن **Bencetti** وغيره من المستكشفين الإيطاليين روّاد التوسّع التجاري في أفريقيا الشمالية أماط اللثام عن هذه النوايا السلميّة للمهدي في صورة لا تخلو من المبالغة إذ قال : إن السنوسيّة لا تعدو أن تكون طريقة دينية، وهي لا تصدر عن شعور معادي ضد الأوروبيين، فالشيخ لا يرغب إلاّ في أن يُترك في هدوء، وهو لا يملك أسلحة أو ذخيرة. وذهب **Camperio** إلى درجة أن لقب المهدي بـ الرجل المقدّس" (المرابط).

وممّا تقدّم ندرك التصوير الملتبس والمضلل من قبل المبعوثين الأوربيين التي تناصب دولهم السنوسيّة العداء لحقيقة السنوسيّة ونشاط إمامها، ودسّهم ضدّه لدى السلطان، دون أن يفلحوا في زعزعة موقفه، وتصميمه على مقاومة مخططاتهم، مع حرصه على الإستفادة من سلطة الإمبراطوريّة في الوقت نفسه.

---

١٧ ص 302 من كتابه Les Tuarg du Nord

١٨ المرجع Oppenhim = Washington Rabeh ص136 -137

الغزو الفرنسي

ولكن قبل مجيء السيد المهدي الى الكفره كمنطلق الى السودان الأوسط، سبقه الى ذلك الإحتلال الفرنسي الذي ينبغي سرد كيف بدأ وكيف توغّل في الإقليم.
بعد توقيع إتفاقيّة (فاشوده)، إنطلقت القوّات الفرنسية متّجهة صوب الوسط الأفريقي، دون أن تلقى مقاومة تذكر إلا من المغامر الشهير رابح بن فضل الله، الذي مرّ ذكره عدّة مرّات في استعراضنا للتغلغل الحربي الفرنسي في أفريقيا، وما رافقه من صراعات داخليّة. فمن هو رابح بن فضل الله هذا؟

وُلد في الخرطوم عاصمة السّودان، الذي كان تحت الحكم الإنجليزي – المصري، لأب عربي من قبيلة (فونجي)، وانخرط في خدمة فرقة الخيالة بالجيش وكان عمره عشرين عاما. وبعد أن أصيب بجروح نتيجة حادث، عاد الى الخرطوم. وهناك تعرّف على القائد السّوداني الزبير الذي كان يتعاطى تجارة العاج والرّقيق في منطقة بحر الغزال. وعندما نُصّب الزبير واليا على هذه المنطقة عام **1873**، قام بالإستيلاء على دارفور وضمّها باسم الخديوي. ولكن سرعان ما تمّ استدعاؤه إلى القاهرة، ووُضع في الإقامة الجبريّة لما أشيع عنه من أنه أراد أن يتوّج نفسه ملكا على دارفور بفضل سطوته وثروته، فقام إبنه سليمان بالعصيان وتمرّد على الوالي الذي عُيّن محلّ والده، غير أن سليمان هُزم في المعركة واستسلم، وظلّ رابح وهو أخ لسليمان في الرضاعة يحارب رافضا الإستسلام، وهرب مع جيشه المكوّن من حوالي خمسمائة جندي (وقيل بضعة آلاف وهو مستبعد) نحو الغرب، حيث قام بغزوات وغارات السلب والنهب مابين عام **1880** الى عام **1885**، عندما حطّ رحاله في منطقة (دار كوتي) – وهي تابعة الآن لجمهوريّة أفريقيا الوسطى- ومن هناك صدّ هجوما شنّه ضدّه سلطان واداي. وحين تلقى أمرا بالخضوع لمهدي السودان رفض الأمر مستقويا – كما ذكر بروكلمان- بموقف شيخ السنوسيّة الذي رمي هذا المهدي بالزندقة.[١٩] وفي عام **1892** زحف رابح على (باجرمي) وهزم سلطانه واستولى على البلاد، ثم غزا عام **1893** بورنو ودمّرها واتخذ (ديكرا) – جنوبي بحيرة تشاد- مركزا لقيادته في يونيه **1894**. ومن هناك إنطلق غازيا واستولى على جميع سلطنات وإمارات (بورنو) و(يندر) و(سوكوتو) و(كانو). وبعد أن استقرّ في تشاد في الفترة من **1893–1896** واصل غاراته في النهب ومهاجمة قوافل التجارة، لأن

١٩ بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلاميّة) ص 651

الضرائب التي كان يفرضها ويقتطع نصفها لنفسه، لم تكن كافية لتمويل نفقات جيشه وحملاته المستمرّة. بيد أن غاراته على القوافل ألحقت الضرر بتجارة السودان الأوسط، وتحوّلت إلى طريق واداي –الكفرة- بنغازي، فشعر بخسارته للعوائد والغنائم، ولذلك أخذ يسمح بمرور القوافل دون أن يتعرّض لها بالغارات. وقد تضاربت الآراء حول علاقاته بالسيد المهدي السنوسي، فبعض المؤرّخين قال إن السيد المهدي استخدمه في الجهاد ضد الفرنسيين الذين بدأت طلائع زحفهم في تلك السنين، وأنه أنشأ صلات حتى مع الأتراك الذين شوهدت بعض أعلامهم ترفرف في صفوف جيشه[٢٠] ، بينما ثمّة روايات أخرى على العكس من ذلك وتفيد بأنه لم يستجب لطلب السيد المهدي السنوسي بأن يتحالفا لصدّ الزحف الفرنسي. وقد تزامن تعاظم خطر رابح هذا، وسعيه إلى إنشاء إمبراطوريّة تقوم على النهب والإسترقاق، مع بداية التوغّل الفرنسي تطبيقا للإتفاقيّة الأنجلو – فرنسيّة الموقعة في **21** مارس **1899**، والمترتبة عن التقاء الجيش الإنجليزي الزاحف من السودان –بعد سقوط دولة مهدي السودان- مع الجيش الفرنسي الزاحف من الكونغو بقيادة (مارشان) **Marchand**، وذلك في بلدة فاشوده بالسودان –وتسمّى الآن كودوك- وهي الإتفاقيّة التي قسّمت الممتلكات الأفريقيّة بين الدولتين الإستعماريتين العظميين، كما سبق لنا ذكره في الفصل المتعلق بتطوّر الحركة السنوسيّة.

وبناء على ذلك قرّرت القيادة العسكريّة الفرنسيّة إزاحة خطر رابح عن طريق زحفها، والقضاء عليه فجهّزت ثلاث وحدات للإطباق عليه، حتى يتسنّى لها إحتلال تشاد وذلك على النحو التالي:

-- وحدة بقيادة المقدّم لامي **Lamy** مكوّنة من أكثر من ثلاثمائة جندي وعشرة ضبّاط،وتحمل إسم (فيرو)[٢١] تحرّكت من ورقلة ووصلت زندر عن طريق (تماسنين). وبعد أن عبرت الصحراء هاجمت قوّات رابح على ضفاف بحيرة تشاد .

-- وحدة ثانية كانت باسم قافلة (فوليه شانوان) **Vohlet Chanouine** التي كان عليها أن تستولي على زندر، بعد أن تُخضع في طريقها الأراضي المعطاة لفرنسا بموجب الإنفاقيّة الأنجلو – فرنسيّة.

---

٢٠ تشايجي ص 159–162 غيرأن المؤرّخ بحث في الإرشيف الفرنسي ولم يجد دليلا على هذه الصلات.

٢١ هو شارل فيرو مؤلف الحوليّات الليبيّة ترجمة د.محمد عبد الكريم الوافي ،مكتبة الفرجاني بطرابلس ليبيا، وقد شغل فيرو منصب قنصل فرنسا في طرابلس منذ عام 1878، وتجوّل في الصحراء الكبرى في حركة استنكشاف استعماريّة، ودوّن ملاحظاته عن بعثته مع المقدّم لامي المذكور في كتاب بعنوان – Documents scientifiques de la mission saharienne Paris,Masson et c.1905

-- الوحدة الثالثة والتي كانت بقيادة جنتيل **Gentil** وتحرّكت من (أوبانجي) وهاجمت قوّات رابح من ناحية الجنوب ،ولكنّها واجهت مقاومة شديدة أوقفت تقدّمها. وبعد أن خسرت أربعة مدافع في موقعة (كانو)،عادت القهقرى في الوقت الذي كانت فيه الوحدتان الأخريان قد وصلتا الى أهدافهما.

ولمّا كان رابح يتوقع أن تُطبق عليه هذه الكماشة من القوّات، فقد خاض معركة استبسال ضارية وفاصلة معها في (كوسّيري) على ضفة نهر شاري جرت يوم **21** أبريل **1900**. وقد قُتل فيها رابح كما قُتل المقدّم لامي أيضا. وبهذا تسنّى للقوّات الفرنسيّة أن تقضي على هذا الخطر الأوّل الذي واجهها في زحفها الإستعماري، ومن ثمّ زحفت على كانو وواداي وبوركو وتبيستي،لتصطدم مع القوّات الليبيّة بقيادة السنوسيّة التي كانت لها بالمرصاد.

وسرعان ما أدرك السيّد المهدي أن المخطّط السياسي العسكري لفرنسا كان يسعى إلى تحطيم تجارة طرابلس الغرب مجبرا القوافل على التوجّه إلى تونس، ورأى في ذلك إعتداء على مصالح قومه، ممّا اضطرّه إلى خوض الكفاح. وفي الأثناء برزت حادثة (فاشوده) التي سبقت الإشارة اليها، والتي هدّدت بإشعال الحرب بين فرنسا وانجلترا. وراود المهدي الأمل في أن الأطماع المضادّة للقوّتين الأوروبيّتين العظميين ستنتهي بتصفية بعضهما البعض. ولكن بعد أن تلقى الكابتن **Marchand** أوامر حكومته بالتراجع، وتُركت أعالي النيل للورد كيتشنر، تم التوصّل إلى الميثاق الإنجلو فرنسي بتاريخ **21** مارس **1899** الملحق باتفاقية **14** يونيو **1898**[٢٢]. والذي حدّد مناطق النفوذ الفرنسي في أفريقيا الوسطى، ضامّاً تبستي وبوركو وكانم والواداي والعنيدي والوادياجا، أي باختصار الأقاليم التي تسيطر عليها السنوسيّة بلا منازع. وفي الجزء الأخير من الإتفاق أشير إلى ميثاق **1900** و **1902** التاليين، واللذين حظرا على فرنسا أن تتجاوز الحدود شمال جبال **Tummo**. وهي الحجة المرتبطة بالحدود الجنوبيّة لليبيا، والتي كان على إيطاليا أن تواجهها على أرض الواقع بعد معضلة الجغبوب.

---

٢٢ جاء اتفاق 1890 هذا قبل الإتفاقيّة الإنجلو- ألمانيّة عام 1893 - والفرنكو ألمانيّة عام 1894 والتي ثبّتت الحدود الفرنسية في الكاميرون، ونتجت عنها دولة الكونغو المستقلة وأمّنت لفرنسا الدخول إلى تبستي شمالا وإلى النيل شرقاً

وفي غمار هذه الأحداث قرّر المهدي سنة ١٨٩٩ نقل مركز الطريقة من الكفرة إلى (قورو) شرقي تبستي، حتى يتسنى له مراقبة التحرّكات الفرنسيّة عن كثب، حسب رواية المقدّم الألماني فون بولوف.[٢٣]

مقاومة السنوسيّة للغزو

إنتقل السيد المهدي – إذن- من الجغبوب إلى الكفرة سنة ١٨٩٥، وبعد ذلك سنة ١٨٩٩، من الكفره إلى (قورو) جنوب شرق تبستي (تشاد الآن). وقد سبق أن أتينا بشيء من التفصيل على ذكر الهجرات الليبيّة إلى السودان الأوسط وخاصة تشاد، منذ العهد القرمانلي حوالي ١٨٤٢، وخاصة هجرة قبيلة أولاد سليمان وما قامت به من أدوار وتأثير في حياة السكان في تلك المناطق وصراعات حكامها، ثمّ هجرة بعض القبائل والبيوت وغالبيتهم من المغاربة من سرت وغربي إجدابيا منذ عام ١٨٦١، ثم الهجرة الثالثة في الفترة من ١٩٢٨ – ١٩٣٠ من عدّة قبائل من فزان وورفلة والجنوب الشرقي من ليبيا[٢٤] أي أن تلك الأقاليم كانت مألوفة بين قبائل (القبلة) في ليبيا، وكان السيّد المهدي في هذا التنقل محفوفا بكوكبة من المشائخ وزعماء القبائل الذين يشكلون مجلسه الإستشاري، وإضافة إلى كونهم مشرفين على تشييد الزوايا وحفر آبار المياه وتعمير الأرض فقد كانوا رسله وقادة قوّاته لخوض الكفاح إذاما اضطرّ إليه، ففي الرحلة من الجغبوب إلى الكفرة رافقه أحمد اليسكري وأحمد التواتي وأحمد الجراولي وأحمد الثني الغدامسي ومحمّد بن عبد الله السنّي وغيرهم،[٢٥] ومن الجوف أوفد إلى الوادي المرتضي بورخيص للتنسيق مع سلطانها، وفي أواخر ١٨٩٧ أوفد محمّد السنّي إلى أبشّه لنفس الغرض بطلب من يوسف سلطان واداي. وعندما عسكر في قورو حوالي سنة ١٨٩٩ كان مرافقيه من أبرز زعماء وشيوخ القبائل. وللأهميّة ننشر قائمة بأسمائهم ، كما أثبتها مؤرّخ السنوسيّة الطيّب الأشهب في كتابه "برقة العربيّة أمس واليوم" : مازق بو بكر حدّوث – عبد الله حقالش – محمد بو فروة – المبروك سعيد بوزوير- عيسى بو عمر – التواتي بو عمريّة –محمد أحمد عريضة – عبد ربّه بو حنطيشه – عبد القادر ناصر – الفضيل بو خريص الكزّة – محمد عبد القادر الكزّة – محمد بوزيد العبيدي – محمد عقيله العبيدي –عبد الهادي

---

٢٣ في كتابه Bericht uber Politiche Verhaeltnisse in Mitleren Sudan In mitteilungen Des Seminars fur Orientalesche Sprachen Berlin 1904 والنشرة الفرنسيّة Les Senoussia,in Reinseignements Coloniaux Afrique Francaise - أبريل 1902

٢٤ " العلاقات الليبيّة التشاديّة" ص ١٧- ١٨ لسعيد عبد الرحمن الحنديري – منشورات مركز الجهاد طرابلس ليبيا ١٩٨٢

٢٥ "الحركة السنوسيّة الجزء الثاني للصلابي ص ٧٢

البرّاني المغربي – مصطفى بو طيغان – عبد الكريم موسى الدرسي – رجب بو حويش المنفي – محمّد المهدي الجرّاري –إفتيّته المجبري –عبد الله البشاري –يونس عبد العكي –إبراهيم فريطيس –علي قرجيلة – أحميده جبريل."وقد ساهم في تنظيم وقيادة الحرب عدد من المجاهدين مثل : عمر المختار – عبد الله الطوير الزوّي – غيث عبد الجليل – البرّاني السّاعدي – محمد السنّي – محمّد بو عقيلة – صالح بوكريّم"[٢٦] أرسل محمد البراني السّاعدي إلى كانم حيث بدأ الفرنسيون توغلهم، فقاد جحفلا تصدّى لهم وشنّ عليهم عدّة هجمات كان من نتيجتها أن تخلّص من خليفة جوراب أحد القادة المحليين الذي مال نحو الفرنسيين وعقد صلحا مع قائد جيشهم جولاند **Joalland**. كما شيد سيدي البرّاني زاوية في بئر علالي شمال **Mao**، وقد قتل الكابتن ميلو **Millot** في ١٠ نوفمبر ١٩٠١ حين أراد الإستيلاء على الموقع. ولكن في النهاية تمكن (القومندان تيتار) **Comm Tetart**. من احتلالها في ١٨ يناير ١٩٠٢. وخلال معركة ثالثة بالقرب من بئر علالي سقط شهيدا يوم ٤ ديسمبر ١٩٠٢ المجاهد محمّد أبو عقيلة الزويّ الذي خلف البرّاني في القيادة. بعدها جلا السنوسيّون عن كانم. وقد شارك في هذه المعارك شيخ الشهداء عمر المختار الذي رافق للإمام المهدي في انتقاله إلى "قورو" في أواخر ١٨٩٣ "وكان محلّ ثقته ومعقد آماله. وكان السيّد معجبا به، وكان يثني عليه بما هو أهله حتى كان يقول: لو كان عندنا عشرة مثل عمر المختار لاكتفينا بهم، وولاّه السيّد المهدي شيخا لزاوية كلك (أو عين جالاكا) ، واستمرّ بالسودان نائبا عن السيّد المهدي وقائما ببثّ الدعاية الإسلاميّة وتعليم أولاد المسلمين إلى أن رجع إلى برقة سنة ١٣٢١ هجريّة (١٩٠٢ ميلاديّة) وتولى شيخا لزاويته القصور للمرّة الثانية" .[٢٧]

وكانت وفاة السيّد المهدي التي سبقت العمليّات الحربية الرئيسيّة للسنوسية، والتي سيتولى قيادتها إبن عمّه ووريثه السيّد أحمد الشريف، لم تحُلّ البتة دون ما أصبح دفاعاً جماعياً، وحرباً مقدّسة أو جهاداً. وتضاربت الآراء حول تاريخ الوفاة، فالرحّالة المصري أحمد (باشا) حسنين يقول إنها كانت في أغسطس **1900**، والمقدّم الألماني فون بولوف ذكر أغسطس أو أكتوبر **1902**، ثمّ نُقل جثمانه من قورو إلى الكفرة حيث دُفن في زاوية

---

٢٦ "العلاقات الليبيّة التشاديّة" للحنديري، ص٧٩- مرجع سابق

٢٧ الطاهر الزاوي في كتابه "عمر المختار" ص٣٦ – إصدار مكتبة الفرجاني، طرابلس ليبيا، الطبعة الثانية ١٩٧٠. وينفرد الزّاوي بذكر أن سيدي عمر كان نائبا للسيّد المهدي في السودان، وتولى هذه الزاوية في تشاد التي إستمدّت شهرتها من الصراع حولها بين قوّات السنوسيّة والقوّات الفرنسيّة الغازية، والتي سقطت في أيدي الفرنسيين سنة ١٩٠٧ كما سيلي ذكره. أي أن سيدي عمر قضى في السودان الأوسط حوالي تسع سنوات، ورجع في السنة التي توفي فيها الإمام المهدي.

(الأستاذ). وبما أن سبب الوفاة لم يُعلن عنه، فثمّة مؤرّخون يجزمون بأنه توفي شهيدا متأثرا بجروح أصيب بها في إحدى المعارك.

مواصلة المقاومة بقيادة السيّد أحمد الشريف

وقد ولد السيّد أحمد الشريف بمقرّ الإخوانيّة الرئيسي الجغبوب في نوفمبر/ ديسمبر **1873**[٢٨] كإبن أكبر للسيّد محمّد الشريف النّجل الأوّل للإمام المؤسّس، وذلك من زوجته الثالثة السيّدة خديجة بنت أبي موسى بن عمران الفيتوري. وتلقى تعليمه أوّلا على يد والده الذي كان علاّمة متفقها في الدّين، ومشرفا على شئون التعليم في زوايا الإخوانيّة ورئيسا لجامعة الجغبوب. وعندما توفّي والده كان قد بلغ السّادسة من عمره، فكفله عمّه الإمام المهدي وأشرف شخصيّا على تعليمه، وصاحبه في الإنتقال من الجغبوب إلى الكفرة ومنها إلى "قورو". وهناك شارك عمّه في إدارة معارك الجهاد ضد التغلغل الفرنسي. وفي نفس الوقت اعتنى شيوخ السّنوسيّة الكبار بتلقينه الدّروس والعلوم، مثل أحمد الرّيفي ومحمّد المدني التلمساني وعمران بن بركة جدّه من ناحية الأم.[٢٩]

وجاءت وفاة عمّه شيخ الطريقة السيد المهدي، إبّان الهزائم التي تعرّضت لها السنوسيّة على أيدي الفرنسيين في السودان الأوسط، وخاصّة الواداي، ممّا زاد الأوضاع عُسرا أمام الحركة، ونظرا لصغر سنّ السيّد إدريس نجل الإمام المهدي عند وفاته (لم يبلغ الثالثة عشر من العمر)، أوصى بزعامتها للسيّد أحمد الشريف إبن أخيه، وأن يتولى في الوقت نفسه الوصاية على نجله إدريس الذي سمّاه خليفته الشرعي عندما يبلغ سنّ الرُّشد، تمشيّا

---

٢٨ وهناك من يؤرّخ مولده في سنة ١٨٧٥ دون ذكر الشهر كالدكتور محمّد فؤاد شكري في كتابه "السنوسيّة دين ودولة" ص ١٥٦، والمعروف صعوبة التدقيق في تاريخ الولادة في ذلك الزمان، ومهما يكن من أمر فالفرق عدّة شهور.

٢٩ تزوّج السيّد أحمد زوجته الأولى السيدة مسعودة السودانيّة بالجغبوب التي نوفيت في "أبو رواش" بمصر سنة ١٩٤٢- وتزوّج الثانية السيدة خديجة بنت السيد أحمد الريفي بالجغبوب سنة ١٨٩٥- وتزوّج الثالثة السيدة عائشة بنت مصطفى المحجوب بالجغبوب سنة ١٨٩٥ والتي قضت بالكفرة سنة ١٩٠٩- وتزوّج الرابعة السيدة حوّاء القرعانيّة بالجغبوب سنة ١٨٩٦ التي توفيت بمرسى مطروح سنة ١٩٣٤- وتزوّج الخامسة حواء القرعانيّة بالكفرة سنة ١٩٠٣- وتزوّج السادسة السيدة مريم التارقيّة بالكفرة سنة ١٩٠٤- والسابعة السيدة خيرة بنت السيد محمد الهاني الأكرمي بالكفرة سنة ١٩٠٤- والثامنة السيدة زينب القرعانيّة بالكفرة سنة ١٩١٣- والتاسعة بالحجاز سنة ١٩٢٨، وكانت إبنة عمّه السيدة صفيّة بنت السيد محمّد المهدي السنوسي الإبنة الكبرى من زوجته الأولى السيدة فاطمة بنت السيد موسى عمران بن بركة الفيتوري- وقد توفي قائد المجاهدين السيّد أحمد الشريف في منفاه بالمدينة المنوّرة سنة ١٩٣٣. بعد أن خلف سبعة أبناء وستّ بنات.

مع التقليد المتبّع في الطريقة. وكان السيّد أحمد قد بلغ سنّ الثلاثين حين تولّى زعامة الحركة، ولأنه كان مقرّبا من السيد المهدي، فقد تأثر به وتبنّى مناقبه وتأسّى بسيرته. وعندما انتقل السيّد المهدي من الجغبوب إلى الكفرة مع شقيقه السيّد محمّد الشريف، رافقهما نجل الثاني السيّد أحمد، وصوّر وقائع هذه الرحلة وطبيعة المناطق التي عبروا منها، في الكتاب المخطوط الذي أشرنا إليه.

وقد قضت المقادير والأحداث كي ينغمس الرئيس الثالث للسنوسيّة في معترك الحياة السياسة للبلاد.

وتحت قيادته شهدت الإخوانيّة نقلة مفصليّة تاريخيّة، إذ أنه خاض صراعها ضدّ مصالح الدّول الأوربيّة التي اتّخذت من ليبيا وجوارها السّوداني حلبة لهذا الصّراع. وحتى تجابه الغزو الفرنسي، قامت السنوسية بتسليح القبائل وعلى رأسها قبيلة أولاد سليمان التي سبقت بالمجيء إلى هذه الأقاليم كما رأينا.

وحتى نرصد كيف واصل السيّد أحمد الشريف جهاد عمّه في تلك الأقاليم، سنجد في البوركو أن القائد الفرنسي **Reibell** ومعه الكابتن **Robillot** طوّقا آخر زحف للجماعات السلطانية التي كان يقودها إبن رباح، كما سبق ذكره. أما العقيد **Destenave** فقد توغّل في كانم، وهنا التقت الجيوش الفرنسيّة والسنوسيّة. وتأتي أهميّة هذا الحدث في أنه كان إشارة البدء في مرحلة جديدة في تاريخ أفريقيا المسلمة. وقد وصفها **Oppenheim** بهذه العبارة :"إنه أوّل نزاع تخوضه الإخوانيّة السنوسية ممتشقة السلاح ضد قوّة أوروبيّة". وجرت المعارك الطاحنة بين الجانبين، والتي شهدت في إحدى مراحلها إحتلال زاوية بير علالي وتهديمها من قبل الجيش الفرنسي بقيادة **Fouque** في **9 نوفمبر 1902**، ممّا أرغم السنوسيّين على الإنسحاب واللجوء إلى بوركو، إلا أن الفرنسيين لم يشأوا التوقف عند كانم. والسبب في ذلك عرضه بوضوح **Cornet**[٣٠] دون أن يخدع نفسه على أية حال بسهولة الإنتصار حين كتب يقول، معترفا بالتفصيل بالستراتيجيّة الإستعماريّة لدولته من وراء توغّلها في السّودان الأوسط :"إن إحتلالنا الدائم لبوركو قد أوقف إنسياب القوافل على طريق بنغازي-الواداي صوب دارفور من شرق البحر الأبيض المتوسط إلى الوسط الأفريقي، مما سيثير على الأرجح مقاومة شديدة". ثم يضيف :"لقد فرض التمركز في بوركو نفسه، فهذه المنطقة هي مصدر الحبوب للسنوسيّين والحدود التي تحمي طريق القوافل، وتحوّلت بؤر الغارات الموجّهة ضد كانم والأير إلى مصادر أمن مستتب.

---

٣٠ أنظر ص 248 في كتابه المشار إليه

واحتلالها يعني إذن تجنيب معاونينا الإداريين خطر الحملات السنوسيّة، والقضاء على تجارة الرّق والسلاح بين وسط أفريقيا والبحر الأبيض، وحرمان السنوسيّين من إقليم غنيّ بالحبوب. إن هذا القرار إضافة إلى ذلك أملى الحاجة إلى تأمين طريق القوافل الذي نريد أن ننشئه بين تونس وتشاد عن طريق (كادو) و(بيلما) على حساب طرابلس الغرب. وهذا الطريق غير مؤمّن في الوقت الحاضر، بسبب هجمات المغيرين من تبستي الذين يهاجمون القوافل وينهبونها، فإذا ما أردنا فتح التجارة التونسيّة، فعلينا إذن احتلال تبستي، وهذه ستكون مهمة سهلة، لأننا لن نواجه هناك قوّات منظمة. ولكن هذه البلاد تلاصق جنوب بوركو ويبدو من المستحيل أن تسمح الحاميات السنوسيّة في هذه المنطقة الأخيرة بقبولنا كجيران لها، لذا علينا أن نطردها من بوركو لكي نصون تبستي. وباختصار فإن إحتلال تبستي وبوركو سيؤدّي إلى إبعاد مركز هجوم السنوسيّين من الشمال صوب الواحات الليبية، وعرقلة (الدويلات) الإسلامية الكبيرة في وسط أفريقيا من أن تتزوّد بالسلاح بوتيرة سريعة، والقضاء على الطريق الوحيدة للرقيق التي لا زالت قائمة في أفريقيا، مؤمّنين لتونس منافذ للتسويق إلى تشاد وبوركو وتيمبوكتو وباجرمي، ومحققين لإير وكانم أمناً لم تعرفه إلى اليوم".

ويعلّق المؤرّخ الإيطالي ماريانو على ذلك، مشيرا إلى مقاصد دولته إيطاليا الإستعماريّة فيقول: "لقد كانت كلمات **Cornet** متنبّئة بالمستقبل، فبالنسبة لنا ما يهمّنا بالدرجة الأولى هو إغتنام الفرصة لاستغلال تجارة القوافل لصالح تونس وعلى حساب طرابلس الغرب. وهذه السياسة من ناحية تعتبر طبيعية عند أيّة قوة استعمارية، ومنطقيّة لو لم يتم التغيير في طرابلس الغرب، وتحلّ إيطاليا محلّ تركيا. ولكن من ناحية أخرى فمن الطبيعي أن تحرس إيطاليا الحدود الجنوبية والشرقية لليبيا، بعد إتمام التصديق على اتفاقيّة الحدود الغربية مع تونس".

وقبل أن تعلن فرنسا عزمها على متابعة زحفها على طول تبستي كان أحمد الشريف، مستشعراً الحظر المجاور له، قد قرّر نقل مركز الطريقة من قورو إلى الكفرة منذ عام **1902**، حسب **Mariano**، حتى يخلق العديد من العقبات أمام الغزاة. ولقد توالى الكفاح ضارياً ومنهكاً لعدّة سنوات، ولكن بعد سقوط عين جالاكا في **21** أبريل **1907**، احتُلّت بوركو أيضا من قبل الفرنسيين، فانتقلت المقاومة السنوسيّة حينئذ إلى الواداي. غير أن التقدم الفرنسي تواصل بانتظام : ففي **1909** سقطت أباشه عاصمة الواداي، ومع مجيء حملة الكابتن **Chauvelot** والعقيد **Moll** ضد مساليت **Massalit** في عام **1910**، أصبح الواداي كله موطأ للفرنسيين. وبهذه المناسبة لاحت لأول مرّة في بوركو وتيبستي حاميات

عثمانية. فالزحف الغربي المتنامي جعل تركيا تفيق، ولكنها كانت صحوة قصيرة المدى،لأن إيطاليا - أثناء توالي هذه الأحداث- أعلنت الحرب ضدّ تركيا، وبدأت في احتلال ليبيا. بل إن آخر حامية عثمانية في بوركو، وهي حامية عين جالاكا، سُحبت بمجرّد نزول القوات الإيطالية في طرابلس وبنغازي. وحسب تعبير ماريانو كان هذا فضلاً قدمته إيطاليا لفرنسا، التي تسنّى لها بذلك البدء الفعلي لاحتلالها أفريقيا الصحراوية والإستوائية.

وكان لاندلاع الحرب الأوروبية مضاعفاتها في المستعمرات، فبالنسبة لفرنسا بدا أن إستيلاءها على عين جالاكا لم يحسم حملتها في أفريقيا الإستوائية، لأن الحروب الإستعمارية ليست مثل الحروب الأوروبية والتي غالبا ما تنتهي ببساطة بتوقيع إتفاقيّات سلام. بينما في المستعمرات حيث لا توجد منظومات إقتصادية محكمة تربط المواطنين بمصالحهم وبالتالي بأرضهم، حتى ولو سقطت هذه في أيدي قوّة أخرى، وحيث السكان شبه رعاة والحدود في غاية الميوعة، ولا يستطيع الأوروبيون التوطّن إلا لماماً، وحيث المحميّات العسكرية غير الثابتة تكون تحت رحمة المعاهدات؛ فمن الطبيعي،والأحوال هكذا، أن تتحرّك الأمور بسهولة، إذ حتى بعد المفاوضات يطغى أزيز الحرب، ويستسلم السكان مستفيدين من غفلة آنيّة للمحتلين [٣١]، ثم يثورون ويسترجعون استقلالهم الفعلي. ففي عام **1913**، بعد أكثر من إحدى عشرة سنة من الحرب، حافظت السنوسيّة على الأقل على سبع زوايا مهمة في منطقة النفوذ الفرنسي. وبعضها كان محصّنا جيّداً في بوركو و تبستي. غير أن حملة (لارجو) سنة **1913-1914** استطاعت أن تسيطر عليها بعد إشتباكات عنيفة، وأن تجعل سيدي محمد السنّي قائد القوّات السنوسيّة في الإقليمين وإبنه المهدي وما تبقى من قوّاتهما، يلجأون إلى الكفرة. ولكن سلطة الطريقة لم يُقض عليها وإن انكسرت إلى حدّ ما. فقد كتب (اندروس)[٣٢] :"إن الحرب ضدّ الفرنسيين لم تنته بعد". وفي الواقع، فالسنوسيّة أثناء الحرب الأوروبيّة إستأنفت، من بوركو وتيبيستي بالتحديد، الزحف وبهدوء نحو الغرب، محتلة أراض عسكريّة في الواحات، الواحدة بعد الأخرى. وإنّ في سقوط الثكنة العسكرية الفرنسيّة القصيّة (جانيت) في أيدي فرسان قافلة كانت متجهة إلى

---

٣١ في حالة فرنسا وإيطاليا اضطرّتا بحكم الضرورة إلى إنقاص حامياتهما في المستعمرات من أجل الحرب الأوروبية

٣٢ Vol 47,11,2 Feb 1916 Geographical Journal

أير، علامة واضحة في ذلك الوقت على الأقل، على سيادة السنوسيّة المطلقة على الصحراء الوسطى.[٣٣]

يزعم المؤرّخون الفرنسيّون[٣٤] في تسويغهم لتوسّع دولتهم الإستعماري، أن حكم تركيا لطرابلس الغرب (ليبيا) منذ أن عادت إلى إحتلالها - بعد سقوط دولة القرمانلي عام **1835**- لم يصل بتاتا إلى تبستي وبوركو والعنيدي. وفي جنوب برقة، لم يتعدّ مطلقا (وادي الفارغ) بين جالو والكفرة. فناختيجال حين كان في تبستي، في الفترة من **22** يونيه إلى **3** سبتمبر**1869**، لم يذكر أنه لمح ضبّاط الباديشاس أو حرس الحدود التركي. بالإضافة إلى أن امتلاك فزان من قبل تركيا اعتُرف به من الدول المعنيّة على اعتبار أنه الهنترلاند الطبيعي لطرابلس الغرب،[٣٥] فاللورد (سالزبوري) وزير خارجية انجلترا صرّح يوم **11** أغسطس **1890** في مجلس اللوردات، أن ليس في تصريح **5** أغسطس **1890** (الإنجلو - فرنسي) ما يمسّ حقوق تركيا التي تملكها في المناطق الواقعة جنوب طرابلس. وكان المتوقع هنا أن تعترف فرنسا وانجلترا بحقوق الباب العالي في فزان. وقد أعطت إيطاليا نفس التفسير وفقا لتصريح وزير خارجيتها أمام مجلس الشيوخ بتاريخ **24** أبريل **1899**، كما نُصّ على هذا الاعتراف في الرسائل المتبادلة بين فرنسا وانجلترا والملحقة بتصريح **1890**. بينما تصريح **1890** ،الذي عُدّل بتصريح **1899**، إعتبر الحدّ الشرقي للنفوذ الفرنسي يمتد مائلا، ثم يخترق خط عرض**15**. أما الأتراك فإنهم في احتجاجهم على تصريحي **1890** و**1899**، فقد حدّدوا (الهنتر لاند) لطرابلس الغرب. ولكن منطقة النفوذ التي يطالبون بها إعتبرها القانونيّون والدبلوماسيّون الأوربيّون قابلة للجدل. والواقع أن هذه المنطقة لم تحدّد دبلوماسيّا، لأنها جاءت على هيئة مطالب آحادية الجانب لم يسندها أي اتفاق، مع قوّة لها حضور فعلي في المنطقة. على العكس من المنطقة الفرنسية. ومن ناحية أخرى، فإن المذكرة التركية في رأي (روند دي كارد) بالغت في حجم الهنترلاند حتى وصلت إلى جهات ليس للإمبراطورية العثمانية أية ممتلكات فيها.

---

٣٣ ماريانو في"مسألة الجغبوب" ص 98

٣٤ مثل Bernard Lanne في كتابه (تشاد وليبيا) ص ٢٨ ــ ٢٩

٣٥ نظرية (الهنتر لاند) هي إصطلاح ألماني يعني (البلاد الداخلية أو الخلفية - أو القبلة بالتعبير الليبي. وقد واجهت هذه النظريّة في القرن التاسع عشر أساتذة القانون الفرنسيين الذين درسوا تطبيقها في ضوء ترسيم الحدود بين فرنسا وانجلترا في الصحراء. وفي كراس وضعه عام 1910، البروفيسور Rounnd de Cand من جامعة (تولوز) ذكر فيه : " أن مؤدّى تصريح 1890 بكل وضوح، ما هو إلا تعبير على أن منطقة النفوذ الفرنسي يمكنها أن تتوسع نحو الشرق، إلى خط يمتد إلى أقصى جنوب فزان حتى Bannoua على بحيرة تشاد"

وبهذا فإن المطالب التركية في نظر هذا القانوني الإستعماري، من شأنها نسف الحقوق التي حصلت عليها فرنسا وانجلترا، بل وألمانيا أيضا بالنظر إلى شمال الكاميرون الواقع على ضفة بحيرة تشاد.[٣٦]

وبدا أن السيّد أحمد الشريف، حين تولى القيادة مباشرة بعد وفاه الإمام المهدي سنة **1902**. أراد أن يتفادى الخطر الفرنسي الذي أخذ يطبق كالمّاشة على قوّات المقاومة، ففضّل أن يمارس حرب العصابات المتناثرة وغير القارّة، فسارع بإخلاء (قورو) في ١٩٠٣ عائداً إلى الكفرة. ثم عسكر السنوسيّون في بوركو على خط الواحات المجاورة لفايا. ومن هناك أخذوا يشنّون الغارات على المواقع الفرنسية في كانم وكوار، وهي تابعة لبيلما في أراضي النيجر. و لهذا السبب ولمواجهة هذه الغارات، أنشأ الفرنسيّون مفرزة من (المهاريست) في كانم، وقادها ابتداء من ١٩٠٤ الملازم **Rangin** والذي شرع في شنّ غارات مضادة كانت أحداها في فايا في ٢٨ يونيه ١٩٠٦. وفي ١٨ نوفمبر من نفس السنة، إصطدم **Comm.Gadel** في (فاشي) **Fachi** بقوّة سنوسيّة كانت متجهة صوب بيلما. وفي ٢١ أبريل ١٩٠٧ استولى الملازم **Bordeaux** على قلعة عين جالاكا في معركة استشهد فيها سيدي محمّد البراني. وفي ١٩٠٧ أقيمت نقطة مراقبة في **(Ziguei)** لمراقبة الحدود جيداً. وفي ١٩٠٨ شنّت غارات سنوسيّة جديدة على كانم وكوار، وانتقاماً لها عاد الملازم **Cellier** إلى عين جالاكا، ولكنه أخفق أمام الزاوية التي أعيد بناؤها (٢٦ - ٢٧ سبتمبر ١٩٠٨). في ١٩٠٩ شنت غارات جديدة على زندر شمال بيلما وعلى كانم، مما أدّى في ٢٧ نوفمبر ١٩٠٩ إلى حدوث قضية "وادي شيمكالي"**Oudchemkale**. ففي ذلك اليوم غزت بشكل مفاجئ مجموعة من التبو يقودها عبد الله الطوير معسكراً للقناصة، وأخذت النساء والأطفال الذين بيعوا عقب ذلك كعبيد[٣٧] وفي ٢١ مايو ١٩١٠ شنت غارة أخرى على **Maul**، وهو موقع للمهاريست شمال **Nguigmi** . وكلها تقع على ضفاف بحيرة تشاد.

ويواصل المؤلّف الفرنسي لكتاب "تشاد وليبيا" سرده بالقول: لقد أظهر السنوسيّون بشكل مستمر عداءهم للفرنسيين كغيرهم من المسيحيين (النصارى - هكذا في النصّ) وأحد دعاة السنوسيّة وعد بالجنة كل من يغتال (ناختيجال) أثناء تجواله في تيبستي في ١٨٦٩. وكان الواداويون هم الذين اتخذوا موقفاً عدوانيّاً حيال الفرنسيين خلال عام ١٩٠٢. فقد

---

٣٦ ينظر كتاب (ليبيا - تشاد) ص ٣٢ - ٣٣ - ٣٤

٣٧ لقد روى لارجو هذه الحادثة (واد شيمكالي) في الرسالة التي بعث بها إلى السيّد أحمد الشريف في ٣١ ديسمبر ١٩١٣، بعد السيطرة على عين جالاكا

حرّضوا **Gouramg** على إلغاء التحالف الذي عقده مع **Gentil**عام ١٨٩٧ وجُدّد عام ١٩٠٠. إذ وُجدت مراسلة تثير الشبهات حول ملك (سلطان) باقيرمي، ضمن أرشيف السنوسيّين بعد اخلائهم بنر علالي. وفي عام ١٩٠٦ تدخّل السيّد أحمد الشريف لدى سلطان (دارفور) حتى يتوقف عن إزعاج الواداي. ولكي يكرّسوا كلّ جهدهم وقوّاتهم في الكفاح ضد الفرنسيين.

ومع أن العلاقات بين السنوسيين والأتراك نادراً ما كانت طيّبة، بالرغم من كونهم كلهم مسلمين.[٣٨] فإن (كاربو) أكد أن السنوسيّين يكرهون الأتراك واعتبروهم كمسلمين سيئين، وأنهم ينتهجون أسلوباً إداريّاً غير فعّال واجراءات مالية استغلالية. فإذا ما رأينا قادة الطريقة المتعاقبين يتمركزون في الصحراء البلقع، فما هذا إلا لأنهم أرادوا تحرير أنفسهم من أية تبعية تجاه إسطامبول. ولقد أرسل الأتراك بعض المبعوثين إلى الجغبوب في ١٨٩٦ وإلى قورو سنة ١٩٠٠، غير أن هؤلاء لم يكن في مقدورهم إلاّ المرور. فحسب (كاربو) مدّت الإخوانيّة نفوذها في فزان دون أن يحاول الأتراك معارضتها .[٣٩]

---

٣٨ ذكر الحشائشي في كتابه، (رحلة في بلاد السنوسية) أن مؤسس الطريقة إستمطر اللعنات في آخر الأيّام على الأتراك، ويطعن كثير من المؤرّخين في هذه الرّواية، ويعتبرونها دعاية روّجت لها السلطات الإيطاليّة، لبثّ الإعتقاد بأن السنوسيين على عداء مستحكم مع الأتراك، وذلك ما يسهّل أمام القوّات الإيطاليّة تقبّل السكان الليبيين لها بل والترحيب بها لأنها أنقذتهم من نير الأتراك! ولا يُستغرب أن يكون الحشائشي ضمن المروّجين لهذه الفرية، طالما كان يتعاون مع الفرنسيين حلفاء الإيطاليين، حسبما ذكر أحمد صدقي الدجّاني في كتابه "ليبيا قبيل الإحتلال الإيطالي ص ٣٢٠

٣٩ (تشاد وليبيا) ص ٣٥.